Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (2) : 28 Feb 2021
P: 1 - 17

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (2) : 28 فبراير 2021م
ص:1 - 17

The poetic rhetorical evidence in the book (Anwar al-Tahali on what was included in the poem of al-Halli) by Abu Abdullah bin Abi al-Qasim (787 AH): Study and Analysis

Ahmad Ghaleb ALkhresheh

The World Islamic Sciences and Education University || Jordan

Abstract: This study investigates and analyzes the rhetorical and poetic evidence in Anwar al-Tahali as contained in the poem of al-Halli by Abu Abdullah ibn Abi al-Qasim (787 AH), a prominent figure in the Maghreb region. The study focuses on two areas: the way the author followed in introducing the rhetorical aspects through combining between the originality of the early rhetoricians and their attention to application and analysis on one hand, and the philosophy of later scholars and their focus on limitations and definitions on the other hand. The second area is that Abi al-Qasim attached a great attention to the poetic rhetorical evidence in his book through a clear approach based on analysis, explanation, examples. Preliminarily, the study introduces Anwar al-Tahali along with two areas. The first area includes the poetic rhetorical evidence of Ibn Abi al-Qasim and his position in relation to imitation and renovation, while the other area deals with the methodology of that position. The study, therefore, adheres to the descriptive – analytical approach. It concludes that Ibn Abi al-Qasim was able to break away from the stereotypical pattern that prevailed in the poetic rhetorical evidence after Abdul Qaher al-Jarjani. The study highlights the importance of studying the rhetorical evidence in the heritage of the ancients in general, and the later ones in particular, because this heritage contains a huge amount of evidence that we may not find in other sources.

Keywords: The poetic rhetorical evidence, Anwar al-Tahali book , bin Abi al-Qasim, rhetoricians, rhetorical trends.

الشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ في كتاب (أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ) لأبي عبد الله بن أبي القاسم (787هـ): دراسة وتحليل

أحمد غالب الخرشة

جامعة العلوم الإسلامية العالمية || الأردن

المُلخَّص: يتناول هذا البحثُ بالدِّراسة والتَّحليل الشَّاهدَ البلاغيّ الشِّعريّ في كتاب (أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ) لأبي عبد الله بن أبي القاسم (787هـ) أحد أعلام المغرب العربيّ، والغايةُ التي يسعى لإبرازها تتمثّل في أمرين: أوّلهما، أنَّ المُؤلِّفَ عرض أبوابَ البلاغةِ العربيَّة بأسلوبٍ جديدٍ جمع بين أصالة البلاغيين الأوائل وعنايتهم بالتّطبيق والتَّحليل، وفلسفة المتأخّرين وعنايتهم بالحدود والتّعريفات، وثانيهما، بيان أنَّ ابن أبي القاسم أولى الشَّاهد الشِّعريّ عنايةً كبيرةً، وأفردَ له مساحاتٍ واسعةً في كتابه، وفق منهجٍ واضحٍ يقوم على توسيع دائرة الاستشهاد البلاغيّ، وتناولِ ما يورده من شواهدَ بالشَّرح والتَّحليل، ورفدِها بشواهدَ أخرى مماثلةٍ لها، والوقوفِ عند بعضها وقفاتٍ نقديَّة عامّة تُظهر ذوقَه الفنّيّ. وجاء البحثُ في تمهيدٍ تناول التَّعريف بكتاب "أنوار التّحلّي"، ومبحثين تضمَّن أوّلهما الشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ عند ابن أبي القاسم وموقعه من التَّقليد والتَّجديد، ووقفَ ثانيهما عند منهجه في عرض هذا الشَّاهد، والتزم الباحث بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ، وخَلُصَ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ ابن أبي القاسم استطاع أن يكسر طابع النَّمطيَّة الذي طغى على الشَّاهد

البلاغيّ بعد عبد القاهر الجرجانيّ، كما خَلُصَ إلى أهميَّة دراسة الشَّواهد البلاغيَّة في تراث القدماء عامَّةً، والمتأخِّرين منهم خاصّةً؛ لما يتضمّنه هذا التّراث من كمٍّ هائلٍ من الشَّواهد التي قد لا نجدُها في غير هذه المصادر.

الكلمات المفتاحيَّة: الشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ، كتاب أنوار التّحلّي، ابن أبي القاسم، البلاغيون، الاتجاه البلاغيّ.

المُقدِّمة.

تُعدُّ دراسة الشَّاهد البلاغيّ في المُؤلَّفات القديمة من الدّراسات المُهِمّة التي تكشف عن الجهود الكبيرة التي بذلها علماؤنا الأوائل في سبيل تأصيل المصطلحات البلاغيَّة وشرحها وتوضيحها، وتزداد أهميَّة هذه الدِّراسات إذا ما علمنا أنَّ الشَّاهد البلاغيّ يمثّل واحداً من أبرز المعايير التي نفاضل من خلالها بين البلاغيين، ونتعرَّف من دراسته إلى مدى مساهمة كلِّ واحدٍ منهم في التّراث البلاغيّ، فضلاً عن الوقوف على مدى تأثّر اللاحق منهم بالسَّابق، وإنْ تفرّد كلٌّ منهم بمنهجه وذوقه الخاص في اختيار الشَّواهد، والتَّعامل معها، والإكثار أو الإقلال من إيرادها، والتنوّع في مصادرها المُتمثِّلة بالقرآن الكريم، والحديث النَّبويّ الشَّريف، والأدب العربيّ: شعره، ونثره.

ولمَّا كان الشَّاهد الشِّعريّ – ولا يزال – ذا أثرٍ بالغٍ في مسيرة الدَّرس البلاغيّ والنَّقديّ، ونظراً لتردّده في المؤلَّفات البلاغيَّة من عصرٍ إلى عصر، ومن متنٍ إلى تلخيصٍ إلى شرحٍ، ارتأيتُ دراسته في كتاب (أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ) لأبي عبد الله بن أبي القاسم (787هـ)، وممَّا دفعني إلى هذا الاختيار أمورٌ عدَّة، أوّلها: أنَّ هذا الكتاب يُعدُّ من أبرز المصادر البلاغيَّة التي استطاعت تيسير الدَّرس البلاغيّ بعد أن بلغ درجةً من التَّعقيد والجمود عند السّكّاكي وأتباعه، إذ سلك فيه مؤلِّفه سبيلاً جديداً لم نجده عند مَنْ تقدَّمه، وحذا حَذْوه مَنْ تأخَّر عنه، فكان بذلك رائدَ نهجٍ جديدٍ في التَّأليف البلاغيّ، وثانيها: أنَّ هذا الكتاب يُعدُّ موسوعةً بلاغيَّةً تضمَّنت خلاصةً لجهود البلاغيين منذ القرن الثَّالث الهجريّ حتّى القرن الثَّامن الهجريّ، وعَرَضَتْ طائفةً كبيرةً من الشَّواهد البلاغيَّة – ولاسيما الشِّعريَّة – عرضاً يُظهر للمتلقّي جماليّات الأساليب البلاغيَّة وأثرها في حُسْن التَّعبير وكماله، وثالثها: أنَّ مؤلِّف هذا الكتاب من أعلام العصر المرينيّ، وهو من أشهر عصور الأدب في المغرب العربيّ، إلا أنَّ التَّاريخ كاد أن يجعله مع كثيرٍ من العلماء المغمورين الذين لم تمتد إليهم أقلامُ الباحثين؛ ولهذا جاء البحثُ للفتِ الانتباه إليه، وبيانِ سعة اطّلاعه، وحُسْنِ نظره في التَّأليف، ويضاف إلى ذلك كلِّه عدم وجود دراسات – في حدود اطّلاعي – تناولت هذا السِّفر الثَّمين، على الرَّغم من مكانته العلميَّة والتَّاريخية في سلسلة التَّأليف البلاغيّ.

وجاء البحثُ في تمهيدٍ، ومبحثين، تناول التَّمهيد التَّعريف بكتاب "أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ" من حيث دوافعُ تأليفه، ومنهجُه، واتجاهُ مؤلِّفه البلاغيّ، وعرض المبحث الأوّل للشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ عند ابن أبي القاسم وموقعه من التَّقليد والتَّجديد، أمَّا المبحث الثَّاني، فقد وقف عند منهج ابن أبي القاسم في عرض الشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ، واقتضت طبيعةُ البحثِ الالتزام بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ.

التَّمهيد: التَّعريف بكتاب "أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ".

أوّلاً – دوافع التَّأليف والمنهج:

إنَّ المتتبّع لحركة التَّأليف البلاغيّ يجدُ أنَّها ازدهرت ونشطت بعد القرن السَّادس الهجريّ، إذ وضع العلماءُ مؤلَّفاتٍ كثيرةً في مباحث البلاغة العربيَّة من معانٍ وبيانٍ وبديع، وعلى الرّغم من أنَّ هذه المؤلَّفات كانت في أغلبها شروحاتٍ ومُختصراتٍ وحَواشٍ لما سبقها من جهودٍ بلاغيَّةٍ، إلا أنَّ بعضَها أولى علم البديع أهميةً كبيرةً، وجعل له مؤلَّفاتٍ خاصّةً، إذ أوجد الشُّعراء والأدباء لوناً جديداً من التَّصنيف البلاغيّ أطلقوا عليه اسم "البديعيَّات"، وهي قصائدُ طويلةٌ في مدحِ الرَّسول - صلَّى الله عليه وسلَّم - وذكرِ شمائلهِ، وصفاتهِ، يتضمَّن كلُّ بيتٍ من أبياتها لوناً من

ألوان البديع، صراحةً أو ضمناً، ويكون هذا البيتُ شاهداً عليه، وتُنظم على البحر البسيط، ورويّها الميم المكسورة[1]، وقد استهوى هذا اللون من التَّأليف البلاغيين، وتوارثوه جيلاً بعد جيل، واستمرَّ حتَّى القرن الرَّابع عشر الهجريّ، حيث بلغ عدد البديعيَّات نيّفاً وتسعينَ بديعيةً، أهمُّها وأشهرها تلك البديعيَّات التي أدركت أوجَ ازدهارها ونضجها في ربيع عمرها المُمتدِّ حتّى نهاية القرن العاشر الهجريّ قبل أن تأخذَ بالذّوي والذّبول[2].

ولعلَّ مِنْ أبرز هذه البديعيَّات وأكثرها شهرةً في التّراث البلاغيّ تلك البديعيَّة التي نظمها صفيّ الدِّين الحلّي (750هـ)، وضمَّنها مئةً وأربعينَ فنَّاً بديعيَّاً، ووضع لها شرحاً مُختصراً سمَّاه "شرح الكافيَّة البديعيَّة في علوم البلاغة، ومحاسن البديع"، ويبدو أنَّ هذا الشَّرح المُختصر – على أهميّته – لم يُلبِّ حاجةَ طلبةِ العلمِ في عصره الذين عنوا بهذه البديعيَّة عنايةً كبيرةً، كونها أوّلَ بديعيَّةٍ مُكتملةٍ وجامعةٍ لأنواع البديع؛ لهذا طلبوا من أبي محمَّد عبدالله بن أبي القاسم (787هـ)[3] أن يشرح لهم هذه البديعيَّة، وألحّوا عليه في السّؤال إلى أن استجاب لرغبتهم، وألَّف هذا الكتاب الذي شرح فيه بديعيَّة صفي الدِّين الحلِّي شرحاً مُطوّلاً ومُفصّلاً، إذ يقول: "سألني مَنْ منحني ودَّه وصفوَه، وكرَّر إليّ سعيَه وخطوَه أن أضعَ لها شرحاً يكون مُقرِّباً لمعانيها، مُهذِّباً لألفاظها ومبانيها، مُستخرِجاً لمعجزاتِ عجائبها، ومُنبِّهاً على محاسن غرائبها"[4]، ويمكن أن نضيفَ لهذا السَّبب سبباً آخرَ يتمثّل في أنَّ عصر ابن أبي القاسم شهد تسابقاً في وضع الشّروحات التي وجد فيها مؤلِّفوها مجالاً رَحْباً قادراً على استيعاب مخزونهم الثَّقافيَّ المُتنوّع الذي عجزت عنه القصائد البديعيَّة المُقيَّدة بالقافية، والبحر العَروضيّ.

وتجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ هذا الكتابَ – كما سيتضحُ لنا - أهمُّ من بديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ، وشرحِهِ المُوجزِ لها؛ لأنَّه تناول ما تضمّنته من فنونٍ بلاغيَّةٍ بالشَّرح المُفصَّل، والتَّحليل الدّقيق وفق منهجٍ علميٍّ واضحٍ، وأسلوبٍ أدبيٍّ يشحذُ الملكات، وينبّه المتلقّيّ إلى استجلاء بلاغة الكلام وحُسْنه.

المنهج الذي سلكه ابنُ أبي القاسم في كتابه " أنوار التّحلّي":

ويمكن أن نلخّص المنهج الذي سلكه ابنُ أبي القاسم في كتابه " أنوار التّحلّي"، بما يأتي:

- **أولاً:** ذِكْرُ الفنِّ البديعيّ (البلاغيّ) أوّلاً، ثمَّ ذِكْرُ بيتِ صفي الدِّين الحلّيّ المُتضمِّن لهذا الفنّ، ليشرعَ بعد ذلك بتعريفه مُعتمداً على تعريف الحلّيّ نفسه، غير أنَّه لا يكتفي بهذا التَّعريف، بل يورد التَّعريفات التي وضعها أبرزُ علماء البلاغة من قبله، مُرجِّحاً – أحياناً – ما استحسنه منها.

---

(1). انظر، أبو زيد، علي: البديعيَّات في الأدب العربيّ (نشأتها، تطوّرها، أثرها)، عالم الكتب، دمشق، ط1، 1983م، ص46.

(2). انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة (837هـ): خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط1، 2001م، 209/1.

(3). هو أبو محمَّد عبدالله بن أبي القاسم الفاسيّ المولد، الجزائريّ الدَّار، أحد أعلام الدَّولة المرينيَّة في المغرب العربيّ، تلقّى علومه في جامع القرويين، وأخذ عن كثيرٍ من شيوخه وعلمائه، له من المؤلّفات كتابان، أولهما: هذا الكتاب الّذي نحن بصدد دراسته، وثانيهما: شرح الأجروميَّة ولا يزال مخطوطاً، ولم تذكر لنا المصادر تاريخ ميلاده، أمَّا وفاته فقد كانت سنة 787هـ، انظر ترجمته في: المَقّريّ، أحمد بن محمَّد (1041هـ): نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب، حقَّقه: إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، (د. ط)، 1968م، 533/5، 279/7، وأبي القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1998م، 169/2، والمنونيّ، محمد: المصادر العربيَّة لتاريخ المغرب من الفتح الإسلاميّ إلى نهاية العصر الحديث، المملكة المغربيَّة، جامعة محمّد الخامس، 1983م، (د.ط)، 115/1، وبنعبد الله عبد العزيز: الموسوعة المغربية للأعلام البشريَّة والحضاريَّة، مطبوعات وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميَّة، المغرب، (د. ط)، 1975م، 31/1.

(4). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّي، أعدَّه للنّشر وعلَّق عليه: مصطفى مرزوقي، المجلس الأعلى للغة العربيَّة، الجزائر، ط1، 2006م، 25/1.

- **ثانياً:** ذِكْرُ الأمثلةِ والشّواهدِ، وتناولها بالشَّرح والتَّحليل؛ لتوضيح الفنّ البلاغيّ الذي هو بصدد الحديث عنه، وتقريبه إلى ذهن المتلقّي، وهي أمثلةٌ وشواهدُ مُتنوّعةٌ استمدّها من مصادرَ مختلفةٍ كالقرآن الكريم، والحديث النَّبويّ الشَّريف، والأدب العربيّ: شعره، ونثره.
- **ثالثاً:** شَرْحُ معاني المفردات الغريبة الواردة في بيت بديعيَّة صفي الدّين الحلّيّ، والتّوسّع والإطالة في هذا الشّرح، وتضمينه شواهد مختلفة يستدلُّ من خلالها على المعنى الدَّقيق الذي قصده الحلّيّ في بيته[5].
- **رابعاً:** شَرْحُ معنى بيت بديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ شرحاً يقرّب مضمونه للمتلقّي، وقد يأتي في سبيل ذلك بشاهدٍ يزيد هذا المعنى جلاءً ووضوحاً[6]، وإذا كان المعنى واضحاً يكتفي بقوله: "ومعنى البيت ظاهرٌ، فلا يحتاج إلى مزيدِ بيانٍ لوضوحه بما قدّمناه"[7].
- **خامساً:** إعرابُ بيت البديعيَّة، وذِكْرُ الوجوه الإعرابيَّة المُحتملة في بعض المفردات، والاستطراد – كلّما اقتضى الأمرُ ذلك- في شرح قاعدةٍ نحويَّةٍ، أو صرفيَّةٍ، أو لُغويَّةٍ [8].

وهكذا استطاع ابن أبي القاسم أن يوفّق في منهج تأليفه بين اتّجاهين: اتّجاهٍ علميّ، يتّضح من تحديده للفنّ البلاغيّ، وتعريفه دون إطالةٍ أو إسرافٍ، واتّجاهٍ أدبيّ، يقوم على التّوسّع في ذكر الأمثلة، والشّواهد، وتحليلها بأسلوبٍ يُسهم في توضيح الفنِّ البلاغيّ، وتنمية ذوق القارئ.

ثانياً- اتّجاه ابن أبي القاسم البلاغيّ:

إنَّ مَنْ يتبصَّر في كتاب "أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّي"، يجدُ أنَّ مؤلِّفَه استطاع أن يجعله موسوعةً علميَّةً أودعَ فيها خلاصةَ ثقافته الغزيرة، وحصيلةَ اطّلاعه الواسع على كثيرٍ من حقول العلم والأدب، إذ يلحظ القارئ أنَّ الرّجل كان ذا معرفةٍ بالأدب: شعره، ونثره، والبلاغة، والنَّقد، واللغة، والتَّاريخ، والتَّراجم، والطَّرائف، والنَّوادر، والقَصَص، فضلاً عن قواعد الفقه وأصوله، وقد وظَّف هذه المعرفة الواسعة في شرحه لبديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ، لذلك انطبق عليه وصفُ زكي مبارك لشروح البديعيَّات، إذ يقول: "ولأكثر هذه البديعيَّات شروحٌ فيها الوسيطُ، والوجيزُ، والمبسوط، وأكثر هؤلاء الشرَّاح من المتفوِّقين في العلوم العربيَّة، وفي شروحهم من الفوائد النّحويَّة، والصّرفيَّة، والبلاغيَّة، واللغويَّة، والأدبيَّة، والتَّاريخيَّة، فنونٌ أكثرها من المُستملَح المُستطاب"[9]، فهذا الوصفُ ينطبقُ تمامَ الانطباقِ على شرح ابن أبي القاسم لبديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ.

ويظهرُ لنا من هذا الوصف أنَّ ابنَ أبي القاسم اتّخذ من شرحِ هذه البديعيَّة، وتوضيحِ ما تضمّنته من فنونٍ بلاغيَّة وسيلةً مُثلى لتخليصِ البلاغة العربيَّة من النَّزعة الفلسفيَّة، والمنطقيَّة التي طغت عليها - قُبيل عصره - والعودةِ بها إلى رحاب المدرسة الأدبيَّة التي حافظت على الجانب الجماليّ للبلاغة العربيَّة، فهو يستحضرُ كلَّ ما وعاه عقلُه من فنونِ الأدب للاستشهاد به على مصطلحات البلاغة، ومباحثها، ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ عناية ابن أبي القاسم بالشّواهد البلاغيَّة تعدُّ من أبرز ما يميّز كتابه؛ لأنَّه استطاع أن يحافظ - من خلالها - على الوجه الحَسَن للبلاغة العربيَّة، وينأى بها عمَّا نُسِبَ إليها من جمودٍ، وجفافٍ، ونمطيَّةٍ في معظم شواهدها، إذ يرى بعضُ الدَّارسين أنَّ الشَّواهد البلاغيَّة بعد عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) أصابها الجمود، وطغى عليها طابع النَّمطيَّة الذي اتّسمت

(5). انظر، المصدر نفسه، 18/1.

(6). انظر، المصدر نفسه، 211/1، 306.

(7). المصدر نفسه، 245/1.

(8). انظر، المصدر نفسه، 18/1.

(9). مبارك، زكي: المدائح النبويَّة في الأدب العربيّ، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، مصر، (د.ط)، 1935م، ص170.

به معظم شواهد العربيَّة، فأصبح البلاغيون يكرّرون شواهده ذاتها دون أن يضيفوا شيئاً جديداً إليها، أو يحيدوا عن طريقة شرحها وتذوّقها، بل بقوا عيالاً عليه، إذ لم تظهر في نتاجهم معالم الأصالة في البحث، والقدرة على التَّجديد[10]، وعلى الرّغم من أنّنا نتفق مع هؤلاء الدَّارسين في أنَّ الجرجانيّ قدَّم جهداً كبيراً للبلاغة العربيَّة، إلا أنَّنا لا نوافقهم في أنَّ مَنْ جاء بعده من علماء البلاغة لم يخرجوا عن أمثلته وشواهده؛ لأنَّ النَّاظر في المؤلَّفات البلاغيَّة التي تلت الجرجانيّ يجد أنَّ أصحابها توسّعوا في ذكر الأمثلة والشَّواهد، ولنا في الخطيب القزوينيّ (ت739هـ) - وهو أشهر من أفاد من عبد القاهر- دليلٌ على ذلك، فضلاً عن أصحاب البديعيَّات الذين شرحوا بديعيّاتهم، أو شرحها غيرُهم بمؤلَّفاتٍ تزخرُ بشواهدَ مُتنوّعةٍ من القرآن الكريم، والأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة، وفنون الأدب شعراً ونثراً، وأمثالاً، وقَصَصَاً، وإشاراتٍ في قضايا النَّحو، والصَّرف، والعَروض، والنَّقد[11].

إنَّ المُتتبّع لجهود البلاغيين العرب - منذ نشأتها وحتّى عصر ابن أبي القاسم - يجدُ أنَّ مناهجَ بحثهم، وتأليفهم تتفقُ إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لتأثّر اللاحق منهم بسابقه والأخذ منه، إلا أنَّنا نجد – في الوقت نفسه – أنَّهم يسيرون في اتّجاهين مختلفين في طريقة بحثهم وتصنيفهم، ففريقٌ منهم سيطر عليه الطَّابع الأدبيّ، وفريقٌ آخر غلب عليه الطَّابع الفلسفيّ والعقليّ، وكان نتيجة ذلك أن أصبح للبلاغة مدرستان، الأولى: المدرسة الأدبيَّة التي اتّخذت من المقاييس الفنيَّة معياراً في الحكم على الأدب، مع حرصها الواضح على سهولة العبارة، وسلاسة التّركيب، ووضوح الدّلالة، والإكثار من الأمثلة، والشَّواهد الشّعريَّة، والنّثريَّة[12]، والثَّانية: المدرسة الكلاميَّة التي كان للفلسفة والمنطق أثرٌ كبيرٌ فيها، لذلك اهتمّت بتحديد الأنواع البلاغيَّة وتقسيمها اهتماماً كبيراً، فضلاً عن الإقلال من ذكر الأمثلة، والشَّواهد، وعدم البحث عن الشَّاهد الحَسَن المقبول[13]، وقد قُدِّر لمؤلّفات هذه المدرسة الشُّهرةُ والذّيوعُ حتّى شُغِلَ النَّاسُ بها، وانصرفوا عن التَّأليف المُبتكر، وكثُرت المُختصرات، والحواشي، والشُّروح ذات الصِّبغة المنطقيَّة.

وبقي التَّأليف البلاغيّ مُقيَّدًا بهذا المنهج الصَّارم إلى أن ظهرت ملامحُ اتّجاهٍ جديدٍ حاول أن ينهض بالبحث البلاغيّ، ويخلّصه ممَّا لحق بها من جمودٍ وتعقيد، إذ وجد أعلام هذا الاتجاه أنَّ العودة بالبلاغة إلى الطَّابع الأدبيّ ليست بالأمر اليسير، وفي الوقت ذاته لا يمكن الاستمرار بالمنهج الكلاميّ الذي يُفقد البلاغة الكثير من جمالياتها؛ ولهذا سلكوا منهجاً جديداً جمعوا فيه بين الاتجاهين السَّابقين في المنهج والموضوع؛ أي الجمع بين القاعدة والضَّبط العلميّ من جانب، والتَّطبيق وتحكيم الذّوق من جانبٍ آخر[14]، وابن أبي القاسم واحدٌ من هؤلاء البلاغيين الذين سلكوا هذا الاتجاه، إذ ظهر كتابه "أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّي" إلى جانب غيره من شروح البديعيَّات بأسلوبٍ طريفٍ، وشرحٍ وافٍ، وشواهد مُمتدَّة الأطراف، تغطّي الإنتاج الشِّعريّ من مصادره الأولى حتّى عصر

(10). انظر، المراغي، أحمد مصطفى: تأريخ علوم البلاغة العربيَّة والتَّعريف برجالها، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، مصر، ط1، 1950م، ص57، وطبانة، بدوي: البيان العربيّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيَّة عند العرب، دار المنارة، جَدَّة، ط7، 1988م، ص234.

(11). انظر، الحمويّ، ابن حِجَّة (837هـ): خزانة الأدب وغاية الأرب، 165/1، والخرشة، أحمد: منهج التعامل مع الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ في كتابه" خزانة الأدب وغاية الأرب"، مجلة الزّرقاء للبحوث والدّراسات الإنسانيَّة، مج 15، ع2، 2015م، ص90.

(12). انظر، مطلوب، أحمد: دراسات بلاغيَّة ونقديَّة، دار الرَّشيد للنّشر، (د. ط)، 1978م، ص13-14، وأبو زيد، علي: البديعيَّات في الأدب العربيّ، ص258- 259.

(13). انظر، مطلوب، أحمد: دراسات بلاغيَّة ونقديَّة، ص15، 23، وأبو زيد، علي: البديعيات في الأدب العربيّ، ص259.

(14). انظر، فاعور، منيرة: الحاكم البلاغيّ "يحيى بن حمزة العلويّ 749هـ، دراسة في التّفكير البلاغيّ"، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2010م، ص6.

تأليفه[15]، وهكذا اجتمعت لكتابه من الخصائص ما لم يجتمع لغيره من المؤلَّفات البلاغيَّة، ولا غرابة، إذن، أن يشكّلَ نواةً انطلق منها شرَّاح البديعيَّات فيما بعد.

ولمَّا كانت قيمة كتاب "أنوار التَّحلِّيّ" وأهمّيته تتمثّل في الشَّواهد البلاغيَّة التي أودعها فيه مؤلِّفه، أرتأيتُ أن أتناولَ الشَّواهد الشِّعريَّة منها بالدِّراسة والتَّحليل؛ لأنَّها تعدُّ من أكثرِ هذه الشِّواهد حضوراً، وأوفرها حظّاً بالعناية والاهتمام، وقد جاءت دراستُها من خلال الجوانب الآتية:

المبحث الأوّل: الشَّاهد البلاغيّ الشِّعريّ عند ابن أبي القاسم بين التَّقليد والتَّجديد

عاش ابنُ أبي القاسم ووضع كتابه "أنوار التَّحلِّيّ" في عصرٍ بلغت فيه المؤلَّفات البلاغيَّة ذروتها، إذ وُضعِت منذ القرن الثَّالث الهجريّ حتَّى القرن الثَّامن الهجريّ العديدُ من هذه المؤلَّفات التي تناولت الفنون البلاغيَّة المختلفة بالتَّأصيل، والشَّرح، والتَّمثيل، وقد كان من الطَّبيعيّ أن يطّلعَ عليها، ويفيدَ منها، ولهذا فإنَّ ليس كلُّ ما أورده من شواهدَ يعدُّ من الجديد الذي لم يذكره غيرُه، بل تبيَّن من خلال النَّظر في هذا الكتاب أنَّ مؤلِّفه اعتمد في مادته - تنظيراً واستشهاداً - على ثلاثةِ مصادرَ رئيسةٍ من المصادر البلاغيَّة، أوّلها: شرح صفي الدَّين الحلّي (750هـ) لبديعيّته المُسمَّى بـ "شرح الكافيَّة البديعيَّة"، وثانيها: كتاب "المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع" لبدر الدَّين بن مالك (686هـ)، وثالثها: كتاب "الإيضاح في علوم البلاغة" للخطيب القزوينيّ (739هـ)، فتأثُّره في هذه المُصنَّفات، واطّلاعه عليها واضحٌ جليٌّ في كلِّ بابٍ من أبواب كتابه، وهو لا ينكر ذلك، بل يشير صراحةً إلى اعتماده عليها، إمَّا في تعريف الفنِّ البلاغيّ الذي هو بصددِ الحديث عنه، وإمَّا بذكر أمثلته وشواهده، ويطول بنا الحديث إذا ما أردنا تتبّع مواطن تأثّره، وإفادته من هذه المصنَّفات، إذ إنَّه كثيراً ما يتردّد على لسانه قوله: "قال النَّاظم في شرحه....."[16] يقصد شرح الحلّيّ لبديعيّته، وقوله: " قال جلال الدِّين....."[17]، وقوله:" قال ابن مالك...."[18]، ويكفي – في هذا السِّياق – أن نذكر مثالاً واحداً يؤكّد اعتماده في إيراد شواهده الشِّعريَّة على هذه المُصنَّفات، فهو في باب " الاستطراد" يورد تعريف القزوينيّ والحلِّيّ له[19]، ثمَّ يستشهد عليه بمثالٍ ورد في كلٍّ من شرح الكافيَّة للحلِّيّ، وكتاب الإيضاح للقزوينيّ[20]، وكتاب المصباح لابن مالك[21]، وهو قول السّموأل: (من الطّويل)

وإنَّا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ

يقرّبُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا ... وتَكْرَهُهُ آجالُهمْ فتطولُ[22]

وممَّا يجدر ذكره أنَّ هذه المُصنَّفات الثَّلاثة ليست هي كلّ ما أفاد منه أو اعتمد عليه ابنُ أبي القاسم في إيراد شواهده الشِّعريَّة، وإنّما هي أبرز ما تأثّر به؛ فمن ينعم النَّظر في هذا الكتاب يجد نفسه مُتنقِّلاً بين أُمّات المؤلَّفات

---

(15). انظر، الخرشة، أحمد: منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ...، ص98.

(16). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 205/2.

(17). المصدر نفسه، 205/1.

(18). المصدر نفسه، 265/1.

(19). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 101/1.

(20).انظر، القزوينيّ، الخطيب(739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م، 30/6.

.(21) انظر، ابن مالك، بدر الدّين (686هـ): المصباح في المعاني والبيان والبديع، حقَّقه وشرحه ووضع فهارسه: حسني يوسف، مكتبة الآداب، الجماميز، (د. ط)، (د. ت)، ص234.

(22). المصدر نفسه، 101/1. وفي روايةٍ (ونحنُ أناسٌ)، انظر، السّموأل: الدِّيوان، صنعة أبي عبدالله نفطويه، تحقيق وشرح: واضح الصَّمد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1996م، ص70-71.

البلاغيَّة كلِّها، من مثل كتاب البديع لابن المعتزّ (296هـ)، والصّناعتين لأبي هلال العسكريّ(395هـ)، والعمدة لابن رشيق القيروانيّ(456هـ)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانيّ(471هـ)، وأساس البلاغة للزمخشريّ(538هـ)، ومفتاح العلوم للسّكّاكيّ (656هـ)، .... وغيرها، ويبدو لي أنَّ إفادة ابن أبي القاسم من هذا العدد الكبير من المؤلَّفات البلاغيَّة مردُّها إلى أمرين، الأوّل: الاطّلاع المباشر على هذه المُؤلَّفات، والنَّظر فيها، واختيار ما يناسبه من شواهدها وأمثلتها، وهذا ما يؤكده محمَّد مفتاح في حديثه عن البلاغيين المغاربة واطّلاعهم على كتب البلاغة المشرقيَّة، ودرايتهم بما تضمّنته من معارف متنوّعة[23]، والثَّاني: أنَّ المُؤلَّفات الثَّلاثة السَّابقة التي اعتمدها ابنُ أبي القاسم، وجعلها مصدراً رئيساً لكتابه كانت قد تأثّرت بهذه المؤلَّفات البلاغيّة، وأخذت عنها الكثيرَ من شواهدها.

لهذا، فإنَّ السُّؤال الذي ينبغي أن نجيب عنه هنا، هو: ما الجديد الذي أضافه ابنُ أبي القاسم في كتابه؟ وهل اقتصر جهدُه في شواهده البلاغيَّة – ولا سيما الشِّعريَّة منها – على جمعها من بطون المؤلَّفات البلاغيَّة التي سبقته؟ وللإجابة عن هذا السُّؤال نقول إنَّ المُتأمّلَ في كتاب "أنوار التَّحلّي" يلاحظ أنَّ ابنَ أبي القاسم استطاع أن يُظهر شخصيته وأسلوبه فيما يكتب، إذ حرص على أن يميّزَ كتابه بتضمينه طائفةً كبيرةً من الشَّواهد الشَّعريَّة، دون أن يقتصرَ في استشهاده بها على عصرٍ دون آخر، أو يفرّق بين قديمٍ وحديثٍ، بل اختار شواهده من عصور الأدب العربيّ كلِّها، بدءاً من العصر الجاهليّ، وانتهاءً بالعصر المملوكيّ، فهو يأخذُ من كلّ عصرٍ ما استطاع إليه سبيلا، مُلتزماً في منهجه هذا بما أقرّه النُّقاد والبلاغيون من عدم الاقتصار في الشّواهد البلاغيَّة على زمنٍ دون غيره، إذ يقول ابن قتيبة (276هـ): "ولم يَقصُر الله العلمَ والشِّعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمن، ولا خصَّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلَّ قديمٍ حديثاً في عصره"[24]؛ لأنَّ المُعوَّل عليه عند البلاغيين – وابن أبي القاسم أحدهم – المعنى الشَّريف، واللفظ الجزل، وهذا ما أكّده ابن الأثير (637هـ) بقوله:" المرادُ من الشِّعر إنَّما هو إيداع المعنى الشَّريف في اللفظ الجزل واللطيف، فمتى وُجِدَ ذلك، فكلُّ مكانٍ خيّمتَ به فهو بابل"[25]، وإلى مثل هذا الرَّأي ذهب معاصرو ابن أبي القاسم نفسه، الذين أباحوا لأنفسهم الاستشهاد بشعر المولَّدين في علوم البلاغة، إذ أشار أبو جعفر الرُّعينيّ الأندلسيّ (779هـ) إلى ذلك بقوله:" يستشهدُ فيها – أي البلاغة - بكلامِ غيرهم من المولَّدين؛ لأنَّها راجعةٌ إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذ هو أمرٌ راجعٌ إلى العقل، ولذلك قُبِلَ من أهل هذا الفنّ الاستشهاد بكلام البحتريّ، وأبي تمَّام، وأبي الطَّيب، وأبي العلاء، وهلمّ جرّا"[26]، ولهذا لم يقيّد ابنُ أبي القاسم نفسَهُ بعصرٍ أو شاعرٍ معيّن، بل تتوالى في كتابه شواهدُ متنوّعةٌ من أشعار المُتقدِّمين، فضلاً عن أشعار المولَّدين، وليس هذا فحسب، بل نلاحظ أنَّه أورد كثيراً من أشعار المُتأخِّرين من معاصريه، وهذا ممَّا يُسجَّل إليه، إذ إنَّ ما يستشهد به – في معظم الأحيان – لا نجده في أيّ مصدرٍ أدبيٍّ آخر، بل إنّنا لا نكاد نجده في غير هذا الكتاب، ويكفي القارئ أن ينظر في أسماء الشُّعراء – ولا سيما – معاصروه؛ لتتبيّنَ له حقيقة ذلك.

وهكذا نرى أنَّ الشّاهد الشِّعريّ عند ابن أبي القاسم يتفاوتُ بين الاتّباع والإبداع، بل أنَّ استشهاده بشعر المُتأخّرين لا يقلُّ عن شعر المُتقدِّمين، فمن يدقّق النَّظر في هذه الشّواهد يجد أنَّ ابن أبي القاسم وقف وِقفةً طويلةً

(23). انظر، مفتاح، محمَّد: التّلقي والتَّأويل (مقاربة نسقيَّة)، المركز الثَّقافيّ العربيّ، بيروت، ط1، 1994م، ص18.

(24). ابن قتيبة، أبو عبد الله محمَّد بن مُسلم (276هـ): الشِّعر والشّعراء، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، 63/1.

(25). ابن الأثير، ضياء الدين(637هـ): المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر، قدَّمه وعلَّق عليه: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، 225/3.

(26). السّيوطيّ، جلال الدِّين عبد الرّحمن بن أبي بكر (911هـ): شرح عقود الجُمان في المعاني والبيان، تحقيق: إبراهيم الحمدانيّ، وأمين الحبَّار، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2011م، ص43.

عند شعر المُتأخِّرين من معاصريه، وأورد لهم نماذجَ كثيرةً من الشِّعر، ومثال ذلك استشهاده في باب "الالتزام" بقول لسان الدين بن الخطيب الأندلسيّ (776هـ) حين قدومه على ضريح الولي أبي العباسيّ السّبتيّ بمراكش:(من الخفيف)

يا وليَ الإلهِ أنتَ جوادٌ وَقَصَدْنا إلى حِمَاكَ المنيعِ
راعَنَا الدَّهرُ بالخطوبِ فجئنا نرتجي مِنْ عُلاكَ حُسْنَ الصَّنيعِ[27]

ومثالٌ آخر أورده في باب "الاقتباس" في حديثه عن اقتباس الشُّعراء لقوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة:148)، إذ يقول:" ولله درّ الفقيه أبي عبد الله التّغريّ من أهل العصر حيث استعمل الآية الكريمة في محلِّها في قوله:(من الكامل)

طافَ الأنامُ بكعبةِ اللهِ الّتي لَمْ يَجْعَلِ البيتَ الحرامَ سواها
اختارها لنبيّهِ في قولِهِ لَنُولّينَّكَ قِبلةً ترضَاها"[28]

يظهرُ لنا من هذين المثالين، وغيرهما الكثير – ممَّا لا يتسعُ المقام لذكره - عنايةُ ابن أبي القاسم بأدب معاصريه، وميلُهُ الواضحُ إلى الاستشهاد به كلّما وجد فرصةً إلى ذلك، وعدمُ الاقتصار على ما نقله من سابقيه من شواهد، وهذا المنهج هو الذي ينبغي أن يسود في مؤلَّفاتنا البلاغيَّة؛ لأنَّ إيراد الشَّواهد من نتاج العصر وإبداعه أقرب إلى الوقوف على جوانب الجمال، من شواهد بعيدة عن الزّمن الذي يضع فيه المؤلِّفُ كتابه، مع ضرورة الاحتفاظ بالسّمات الأصليّة والملامح العامَّة لجماليَّات القول العربيّ، وهذا ما لا نجده في كثيرٍ من المؤلَّفات التي وُضِعتْ بعد عبد القاهر الجرجانيّ[29]؛ ولهذا يُسجّل لابن أبي القاسم حُسْنُ تمثّله واستشهاده بأدب معاصريه، واتّخاذه من كتابه سجلاً يدوّن فيه ما خفي من أشعارهم، وضلَّ من أخبارهم، لا سيما المغمورون منهم.

وعلى الرّغم من أنَّ ابن أبي القاسم وسّع دائرة شواهده الشِّعريَّة، وتحرَّك في إطارٍ زمنيّ رَحْبٍ، شمل القديم والجديد على السّواء، وشعر غير العرب من المُولَّدين، وشعر المُتأخِّرين من معاصريه، إلا أنَّه لم يقف عند هذا الحدِّ، بل كان يورد – أحياناً - شواهدَ أخرى من نظمه، فهو – على سبيل المثال لا الحصر – يستشهد في حديثه عن براعة الاستهلال بقوله: " ومن نظمي مطلع قصيدة: (من البسيط).

يا سَعْدُ إنْ جئتَ جيرانَ النَّقى فَقِفِ وحيِّ حيَّ الحِمَى عن قلبي الدّنفِ
وقفْ بِسَلْعٍ وَسَلْ عن جيرةٍ أخذوا فؤادَ صبِّهِمِ بالأعينِ الوُطُفِ"[30]

ولعلّنا لا نجانب الصّواب إذا قلنا إنَّ استشهاد ابن أبي القاسم بشواهدَ من شعر معاصريه، وشعره هو – كما لاحظنا في الأمثلة السَّابقة – يُظهر لنا جانباً من ثقته بنفسه، واعتداده بأدب معاصريه، كما يؤكّد حرصه على ألّا يكون عمله تقليداً أو نقلاً عن مؤلَّفات البلاغيين السَّابقين، بل جعل من هذا العمل مطيَّةً توسّل بها لإظهار إحاطته بفنون الأدب والمعرفة المختلفة، وليضعَ لبنةً في لبنات التَّأليف البلاغيّ، وممَّا يؤكّد ذلك طريقته في اختيار هذه الشَّواهد، وهي طريقةٌ كان لعامل الذَّوق عنده دورٌ كبيرٌ فيها، إذ اختار شواهده الشَّعريَّة معتمداً على ذوقه الفنّيّ الذي استطاع بفضله أن ينتقي شواهده بكلِّ دقَّةٍ واقتدار، وأن يجعل منها مصدراً يثير انتباه القارئ والمتعلِّم، الأمر الذي يدفعنا إلى القول إنَّ هذه الشَّواهد تكشف عن الحسِّ البلاغيّ عنده، وإعجابه بكلِّ ما هو جميل، وهو حسٌّ يَظْهر إلى

(27). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 43/2.

(28). المصدر نفسه، 454/2-455.

(29). انظر، العطوي، عويض بن حمود: منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ بين عبد القاهر وكلٍّ من السَّكاكيّ والخطيب القزوينيّ، ص508-509.

.(30) ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبدالله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 31/1.

كلِّ من يقلّب صفحات هذا الكتاب، وإن خفي – أحياناً - تبقى هذه الشَّواهد دالةً عليه؛ لأنَّ المرءَ يُعرف باختياره، أو كما قال ابن عبدربه (ت328هـ):" اختيارُ الرّجلِ وافدُ عقلِه" [31]، أيّ صادر عنه، وهو من ثمَّ دليلٌ عليه؛ لأنّ انتقاء شواهد معينة واختيارها دون غيرها يكشف عن ذوق صاحبها.

فابنُ أبي القاسم ذو حسٍّ مرهفٍ، وذوقٍ فنيٍّ عالٍ، يورد من القصيدة بيتاً هو بيت الاستشهاد، ثُمَّ يذكر عدداً من أبياتها، مُعلّلاً ذلك بأنَّها من القصائد الغرّ، ومُعتذراً – في الوقت نفسه – عن عدم إيرادها كاملةً بطولها، وقد اتّبع هذا النَّهجَ مع قصائدَ لكبار الشّعراء المعروفين كأبي تمَّام، وأبي فراس الحمدانيّ[32]، وابن هاني الأندلسي[33]، فضلاً عن قصائدَ أخرى للمغمورين من معاصريه، كأبي عبد الله محمَّد المكوديّ الذي وصف شعره بأنَّه "حَسَنٌ مسبوكٌ في الجدِّ والغزل"[34]، ثُمَّ أورد أبياتٍ من قصيدةٍ رائيَّةٍ له في الغزل[35]، والطّويجنيّ السَّاحليّ(717هـ) الذي استشهد له في باب "براعة التَّخلّص" ببيت شعرٍ من قصيدةٍ مدح بها السّلطان أبا الحسن المرينيّ:(من الكامل)

وَقَدَحْتَ زنداً للرّجاءِ فلم يكنْ لولا نَدَى كفّي أبي حَسَنٍ يَري

ثُمَّ يدفعه ما في هذه القصيدة من جمالٍ في التَّصوير، ورقَّةٍ في المعاني، إلى انتقاء جملةٍ من أبيات مطلعها، يشحذُ فيها قريحة المتلقّي، وينمّي ذوقه، إذ يقول:" وهي قصيدةٌ من الغرّ مبدؤها:

خطرتْ كميَّادِ القنا المتأطّرِ ورنتْ بألحاظِ الغزالِ الأعفرِ
وأتتكَ بينَ تطاعنٍ وتذاعنٍ في فَتْكِ قسورةٍ وعَطْفَةِ جُؤْذرِ
تَسْجي على الخدِّ النّقابَ، وإنَّما تَزْجي الظَّلامَ على الصَّباحِ المُسفرِ
فتخالُ بينَ الرَّوضِ ظلَّ أراكةٍ وعلى ثرى الكافورِ ظلَّةَ عنبرِ
وبملعب الصّدغينِ مطردُ وَجْنَةٍ زحفتْ عليهِ كتائبُ ابنِ المُنذرِ"[36]

ومن تأمُّلنا لهذه الاختيارات الشَّعريَّة نستطيع أن ندركَ مقدرة ابن أبي القاسم الفنّيَّة على تذوّق الشَّاهد الشِّعريّ، ودقّته في اختياره، وحرصه على إثراء كتابه بكلِّ ما من شأنه الارتقاء بذوق المتلقّي.

وممَّا ينبغي أن نشيرَ إليه هنا أنَّ ابنَ أبي القاسم – في الغالب - لم يكن يعلّل سرَّ هذا الاختيار، أو يذكر مقاييس الجودة فيما ينتقي لنا من هذه القصائد، وإنَّما كان يكتفي – كما أسلفنا - بالإشارة إلى أنَّها من القصائد الغُرِّ، ويبدو لي أنَّ مثل هذا التّعليل مقبولٌ في مثل هذه المواضع؛ لأنَّ الرَّجل أبان عن غايته من تأليف هذا الكتاب، وهي وضع شرحٍ بين يدي طلابه لبديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ يقرّب إليهم معانيها، ويوضّح غموضها، ويحلُّ مُشكلها، وهذا لا يكون بالخوض في القضايا النَّقديَّة، بل بعرض الشَّواهد التي توضّح المطلوب لتلاميذه أولاً، وتشحذُ قرائحهم وتنمّي أذواقهم ثانياً، فابنُ أبي القاسم – قبل أن يكون مؤلّفاً- شاعرٌ يُدرك ما يتركه الشِّعر الجميل من أثرٍ في نفوس سامعيه، لذلك نجده يختار ما يستجيده ويستعذبه بذوقه الفنّيّ، دون أن يلزمَ نفسَهُ بتعليلٍ ما يستحسنه من نصوصٍ شعريَّةٍ، وهذا هو أسلوب كلِّ من يعوّل على ذوقه وطبعه في الاختيار؛ لأنَّ "ما يختاره النَّاقد الحاذق قد يتفق فيه ما لو سُئِلَ عن سبب اختياره إياه، وعن الدّلالة عليه، لم يمكنه في الجواب إلا أن يقول: هكذا قضية طبعي، أو

(31). ابن عبد ربه، أحمد بن محمد: العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1989م، 20/1.

(32). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 314/1-315.

(33). انظر، المصدر نفسه، 365/1.

(34). المصدر نفسه، 178/2.

(35). انظر، المصدر نفسه، 179/2.

(36). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 367/1-368.

ارجع إلى غيري ممّن له الدّربة والعلم بمثله، فإنَّه يحكم بمثل حكمي"[37]، وقد أشار الآمدي (370هـ) إلى مثل هذا الرّأي، إذ رأى أنَّ للجمال والقبح أسباباً وعللاً يمكن أحياناً لأهل العلم بالشِّعر الوقوف عليها، إلا أنَّه أدرك أنَّ بعضَ مواضع الجمال والقبح لا يمكن بيان عللها والكشف عن أسبابها، وإنَّما يهتدي إليها صاحب الذّوق دون أن يتمكّن من الاحتجاج لها[38]، وهذا ما نلحظه في معظم شواهد ابن أبي القاسم، التي خلت من بيان سرِّ اختيارها، باستثناء بعض النَّماذج القليلة التي ألمح بعباراتٍ مُوجزةٍ إلى سبب إيرادها في كتابه، كقوله:" وهي من القصائد الغُرِّ في معناها"[39]، "وهي من فرائد شعره في معناها"[40]، فهذه الملاحظات – على ندرتها – توحي لنا بإحساسه بمواطن الجمال والإبداع في الشِّعر، مما يدعوه إلى الاستشهاد به.

ويذكرُ لابن أبي القاسم هنا أنَّ ذوقه الفنّيّ كان سبباً رئيساً في قضيةٍ أخرى ذات قدرٍ كبيرٍ من الأهمية تتمثّل في تجنّبه الاستشهاد بالشِّعر الفاحش، وكلّ ما يمكن أن يسيئ إلى مكارم الأخلاق، مخالفاً بذلك بعض شرّاح البديعيَّات الذين لم يتورّعوا عن إيراد بعض الشّواهد الشِّعرية الفاحشة[41]، ممَّا يؤكّد استقلاليّته في إيراد شواهده، وبُعده عن التَّقليد المُفرط، فالرَّجل سِيمتُهُ التُّقى، والأدب، والاحتشام فيما يعرض من أمثلةٍ وشواهد، ويبدو أنَّه اتخذ من هذه السِّمات معياراً لما يورده من شواهد شعريَّة، كونه يشرح بديعيّةً موضوعها المديح النَّبويّ الذي ينبغي التَّأدُّب والتَّعفُّف معه، ودليل ذلك أنَّه أعرض في باب " الغلو" عن الاستشهاد بأبياتٍ شعريَّةٍ للمتنبي، مُعللاً ذلك بقوله:" وقد أكثر أبو الطَّيب المتنبي من هذا الأسلوب حتَّى علَّق عليه بعضهم بأن ألزمه الكفر، وقد أضربتُ عن أبياتٍ تضمَّنت ذلك"[42]، ولنا أن نضيف سبباً آخرَ يتمثّل في أنَّ الرّجل كان شيخاً ومُعلِّماً أراد أن يضع هذا الشّرح بين يدي طلابه وتلاميذه؛ ويجدر بالشّيخ أن يربأ بنفسه عن الشِّعر الذي يتعارض والأخلاق الإسلاميَّة الحميدة.

المبحث الثَّاني - منهج ابن أبي القاسم في عرض الشَّاهد الشِّعريّ

اتّبع ابنُ أبي القاسم في عرض شواهد الشِّعريَّة – في معظم أبواب كتابه - منهجاً واضحاً ومحدَّداً، يمكننا أن نوضّح خطواته فيما يأتي:

أولاً- شرح الشَّاهد:

لقد أشرنا - فيما سبق - إلى أنَّ طريقة ابن أبي القاسم تتلخَّص في ذكر الفنِّ البلاغيّ الذي تضمَّنه بيت صفي الدِّين الحلّيّ، ثُمَّ ذكر تعريفاته الواردة في كتب البلاغيين السَّابقين له، ليشرعَ بعد ذلك بذكر الأمثلة والشَّواهد التي توضّح هذا الفنِّ، ولهذا فإنَّ السُّؤال الذي نودُّ الإجابة عنه هنا هو، كيف كان ابن أبي القاسم يورد هذه الشَّواهد؟ إنَّ النَّاظر في كتاب " أنوار التّحلّيّ" يجد أنَّ مؤلِّفه – غالباً - لا يقدّم شواهده مُجرَّدةً من الشَّرح والتّوضيح، بل يلاحظ أنَّه كان يعقّب على كثيرٍ منها بما يُظهر الفنَّ البلاغيّ الذي تضمّنته، ومثال ذلك ما ورد في "باب التَّسجيع"، إذ أشار إلى أنَّ السَّجْع إمَّا أن يكون مُدمجاً أو غيرَ مُدمجٍ، فمثال الأوّل قول ديك الجنّ:(من الكامل)

---

(37). المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ط)، 1991م، 15/1.

(38). انظر، الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1972م، 410/1-414.

(39). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 365/1، 368.

(40). انظر، المصدر نفسه، 456/1.

(41). انظر، الخرشة، أحمد: منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجَّة الحمويّ...، ص101.

(42). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 455/1.

حُرُّ الإهابِ وسيمه، بَرُّ الإيا بِ كريمه، محضُ النّصابِ صميمه[43]

فهو يعلّق على هذا البيت بقوله:" فأتى بروي الأسجاع على روي البيت، وهي: وسيمه، وكريمه، وصميمه، والإدماج إهاب، وإياب، ونصاب"[44]، ثُمَّ يذكر مثالاً على السَّجْع غير المُدمج، وهو قول أبي تمَّام:(من الطَّويل)

ومِنْ نظرةٍ بين السُّجُوفِ عليلةٍ ومُحْتَضِنٍ شَخْتٍ، ومُبْتسمٍ بَرْدِ

ومِنْ فاحمٍ جَعْدٍ، ومن كَفَلٍ نَهْدٍ ومِنْ قَمَرٍ سَعْدٍ، ومِنْ نائلٍ ثَمْدِ

محاسنُ ما زالت مساوٍ من النَّوى تُغطّي عليها أو مساوٍ من الصّدّ[45]

فنلاحظ أنَّه يحدّد الشَّاهد من بين هذه الأبيات الثَّلاثة، ثُمَّ يتناوله بالشَّرح، فيقول:" فالشَّاهد من هذه الأبيات البيت الثَّاني، فإنَّه أتى به مُسجعاً غيرَ مُدمج، وذلك في جَعْدٍ، ونَهْدٍ، وسَعْدٍ، لكونها جاءت على روي واحدٍ، ....وقوله من فاحمٍ، ومن كَفَلٍ، ومن قَمَرٍ، ومن نائلٍ، ليس بإدماج لاختلاف رويها"[46]، فهذا الأسلوب في عرض ابن أبي القاسم لشواهده الشَّعريَّة يستطيع القارئ أن يلحظه بسهولةٍ ويسرٍ؛ لأنَّه سمةٌ من سمات منهجه في التَّعامل مع شواهده، ويطول بنا الحديث إذا أردنا الوقوف عند كلّ شواهده التي تناولها بالشَّرح والتَّحليل، ولك أن تنظر- على سبيل المثال لا الحصر- في باب "التَّجنيس المذيّل واللاحق"[47]، وباب "التَّطريز"[48]، وباب "ائتلاف اللفظ مع الوزن"[49]؛ لترى كيف أنَّ ابنَ أبي القاسم كان يقف عند شواهده وقفةً فاحصةً تدلُّ على ذائقةٍ أدبيَّةٍ في فهم النُّصوص وتحليلها، وهو لا ينقطعُ عن صنيعه هذا إلّا إذا كان الشَّاهدُ واضحاً كلَّ الوضوح للقارئ.

وليس هذا فحسب، بل تتجلَّى عنايةُ ابن أبي القاسم في شواهده الشَّعريَّة، وحرصُه على شرحها وتفسيرها في محاولته الجمع بين البلاغة والنَّقد واللغة، فهو إلى جانب شرح هذه الشَّواهد شرحاً بلاغيَّاً – على النَّحو الذي رأيناه في المثال السَّابق - نجده في مواضعَ كثيرةٍ يضمَّن هذا الشَّرح فوائدَ وتنبيهاتٍ لُغويَّةً ونحويَّةً، ومثال ذلك ما جاء في "باب الاشتراك"، فهو يستشهد بالبيتين الآتيين من شعر كُثيّر عَزَّة:(من الطّويل)

وأنتِ الّتي حبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ إليّ وما تدري بذاكَ القصائرُ

أردتُ قصيراتِ الحجالِ ولَمْ أُرِدْ قِصارَ الخُطا شَرُّ النِّساءِ البحاترُ[50]

ثُمَّ يشرحهما شرحاً بلاغيَّاً يوضّح موطن الفنّ البلاغيّ فيهما، إلّا أنَّه لا يقف عند هذا الحدّ، بل بلغ به الاهتمامُ بشواهده وحُسْنُ تتبّعها إلى الإشارة إلى ما ورد فيها من قضايا لُغويَّة ونحويَّة؛ لهذا نجده يذيّل شرحه لهذين البيتين بفائدةٍ نحويَّةٍ، فيقول:" اعلم أنَّ البيتين اللذين أنشدناهما لكثيّر عزَّة، استشهد بهما النُّحاة على ما إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين، ولا مرجّح لأحدهما على الآخر، فإنَّ المتقدّم منهما هو المبتدأ، والمتأخّر هو الخبر، والشَّاهد في البيتين، وهو شَرُّ النِّساءِ البحاترُ، فشرُّ النِّساء مبتدأ ومضاف إليه، وهو مُعرَّف بالإضافة إلى معرفة، والبحاتر خبره،

(43). الحمصيّ، ديك الجنّ: الديوان، حقَّقه وأعدَّ تكملته: أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، دار الثَّقافة، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، ص191.

(44). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 9/2.

(45). أبو تمَّام، حبيب بن أوس: ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التَّبريزيّ، تحقيق: محمَّد عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط4، (د. ت)، 111/2.

(46). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 9/2.

(47). انظر، المصدر نفسه، 68/1.

(48). انظر، المصدر نفسه، 24/2.

(49). انظر، المصدر نفسه، 134/2-135.

(50). عَزَّة، كُثيّر: الدّيوان، جمعه وشرحه: إحسان عبَّاس، نشر وتوزيع دار الثَّقافة، بيروت، (د. ط)، 1971م، ص369.

وذهب بعض النُّحاة إلى العكس، وقال: البحاتر هو المبتدأ، وشرُّ النِّساء هو الخبر، واعتلَّ لذلك بأن قال....."[51]، والذي يتتبّع شواهد ابن أبي القاسم يجد كثيراً من هذه التّنبيهات والفوائد اللغويَّة، وكأنَّه معنيٌّ بتحرير شواهده، والنَّظر في سلامتها وموافقتها لقواعد اللغة، فهو يعلّق كثيراً عليها بعباراتٍ تدلُّ على مقدرته اللغويَّة والنَّحويَّة، من مثل قوله:" اعلم أنَّ هذا البيت الأخير استشهد به النُّحاة في أبواب العربيَّة، منها باب....."[52]، وإذا ما أضفنا إلى هذه الملاحظات إعرابه لأبيات بديعيَّة صفي الدِّين الحلّيّ كلِّها، تبيَّن لنا بما لا يدعُ مجالاً للشَّك أنَّ كتاب " أنوار التّحلّيّ" لم يكن خالصاً للبلاغة والنَّقد، إنَّما كان فيه إلى جانب ذلك مباحثُ لغويَّةٌ ونحويَّةٌ أسهمت في تمييزه عن غيره من المؤلَّفات البلاغيَّة.

ويلاحظ القارئ في مواضعَ متفرّقةٍ من كتاب "أنوار التّحلّيّ" أنَّ ابن أبي القاسم كان يحرص على ألّا تكون هذه الشّروحات التي يعقّب بها على شواهده مصدراً لملل القارئ وسآمته، وكيف لا يتنبّه إلى مثل هذا الأمر؟ وهو الذي حرص على أن يختار من الشَّواهد أحسنها وأعذبها؛ لترتاح النُّفوس إليها[53]، لذلك نجده يأتي بين الحين والآخر بقصصٍ طريفةٍ، ومُلحٍ نادرةٍ تُبعد الملل عن القارئ، وتشدّه إلى مواصلة القراءة، ومثال ذلك تلك القصَّة الطَّريفة التي جاءت في باب "التَّوارد"، إذ يقول:" ومنه ما حكي أنَّ محمَّد بن زبيدة كان يطرفُ في قصرٍ له، فرأى جاريةً من جواريه سكرى، وعليها رداءُ خزٍّ تسحبُه، فراودها عن نفسها، فامتنعتْ عليه، وقالت: يا أمير المؤمنين، أنا على حالٍ ما ترى، وليكن ذلك في غدٍ، فلمَّا كان في الغدِّ مضى إليها، فقال لها: الميعاد، فقالت: أما سمعتَ يا أمير المؤمنين، قولهم: كلامُ الليلِ يمحوه النَّهار؟ فضحكَ، وخرجَ إلى مجلسه، وقال: مَنْ بالباب من الشّعراء؟ فقيل له: أبو نواس، ومصعب، والرّقاشيّ، فأمر بدخولهم، وقال لهم: ليقل كلُّ واحدٍ منكم شعراً آخره " كلامُ الليلِ يمحوه النَّهار"، فانفرد كلُّ واحدٍ منهم بنفسه ونظم شعراً....."[54]، ولعلَّ ما يميّز هذه القصص التي أوردها ابن أبي القاسم أنَّها لم تكن حشواً يخرج عن الموضوع، فهي إلى جانب ما تحمله من مُتعةٍ وفُكاهةٍ تجذب اهتمام القارئ، تتضمّن شواهدَ شعريَّةً تُسهم في توضيح الفنِّ البلاغيّ الذي ذُكِرَتْ في سياق الحديث عنه، وممَّا يزيد هذه القصص أهميةً ومكانةً أنَّ بعضَها يتضمّن شواهدَ من نظمه ونظم معاصريه؛ ولهذا فإنَّها تعكس الطَّابع الثَّقافي السَّائد في عصره، ولنا فيما أورده في باب "اللغز والتّعمية" من شواهد اختارها من قصّةٍ دارت أحداثُها بينه وبين معاصريه في بلده الجزائر[55]؛ خيرُ دليلٍ على ذلك.

ثانياً- رفد الشَّاهد بشواهدَ أخرى:

لم يكن شرح الشَّاهد الشِّعريّ السِّمة الوحيدة التي تميّز بها منهج ابن أبي القاسم، بل ثمَّة سمةٌ أخرى ظاهرةٌ في معظم أبواب كتابه، وهي رفد الشَّاهد الأوّل بشواهدَ أخرى كثيرةٍ، تدعمه وتُسهم في توضيح الفنِّ البلاغيّ الذي ورد فيه، ومثال ذلك ما نجده في أبواب "الاقتباس"[56]، و"الالتزام"[57]، و"التوارد"[58]، و" التغاير"[59]، ولتوضيح ذلك نقف عند باب "الكلام الجامع" الذي استهلَّ شواهده بقول المتنبي:(من الخفيف)

---

(51). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 526/1.

(52). المصدر نفسه، 91/1.

(53). انظر، المصدر نفسه، 311/1.

(54). المصدر نفسه، 56/2-57.

(55). انظر، المصدر نفسه، 90/2-92.

(56). انظر، المصدر نفسه، 454/2-462.

(57). انظر، المصدر نفسه، 41/2-49.

(58). انظر، المصدر نفسه، 51/2-64.

(59). انظر، المصدر نفسه، 229/1.

وإذا كانت النُّفوسُ كِبارا تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ[60]

إلا أنَّه لم يكتفِ بهذا البيت، بل نجده يُسهب في رفد هذا الشَّاهد بثمانيةٍ وثلاثينَ شاهداً اختار معظمها من قصيدة لابن شرف القيروانيّ، إذ يقول: " ومن أراد التشفّي من أبيات الحكم والأمثال فعليه بقصيدة ابن شرف القيروانيّ، فإنَّه جمع أبياتَ العربِ وغيرهم، المُشتملة على الحكم والمواعظ، والأمثال، وضمَّن معنى كلِّ بيتٍ للغير في كلِّ بيتٍ من قصيدته...فيذكر بيتاً لغيره، ثمَّ يعقبه ببيتٍ لنفسه في معناه"[61].

ولعلَّ هذا التّوسّع في رفد الشَّاهد الشِّعريّ بشواهدَ أخرى كان السَّبب الرّئيس في كبر حجم هذا الكتاب، فهو عندما يشرع بشرح الفنِّ البلاغيّ لا يشبعُ نهمَهُ البيتُ المفرد أو البيتان من الشِّعر، بل يدفعه اطّلاعه الواسع، وذوقه الفنّيّ إلى ذكر المقطوعة التي ورد فيها الشَّاهد المذكور، وأحياناً يذكر قصيدةً كاملةً أو قريبةً من الكمال، فهو – على سبيل المثال - عندما يتحدّث عن "الغلو" يستشهد بقول امرئ القيس:(من الطَّويل)

مِنِ القاصراتِ الطَّرفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ من الذَّرِّ فوقَ الإتبِ منها لأثَّرا[62]

إلا أنَّه لا يكتفي بذكر هذا البيت، بل يرفده بأبياتٍ أخرى من شعر البحتري، وخالد بن يزيد بن معاوية، وكثيّر عَزَّة، والمُهلهل، والأعشى ..... وغيرهم من الشِّعراء[63]، ثُمَّ يستشهد بقول الفرزدق: (من البسيط)

يَكادُ يُمْسِكُهُ عِرْفانَ راحتِهِ رُكْنُ الحَطيمِ إذا ما جَاءَ يَسْتَلِمُ[64]

فعلى الرّغم من أنَّ ابنَ أبي القاسم أورد هذا البيت للاستشهاد به على الفنِّ البلاغيّ المُسمَّى بالغلوّ، إلى أنَّه لم يكتفِ به، بل أشار إلى القصيدة التي أَخَذَ من هذا البيت، فذكر مناسبتها، ثُمَّ ذكر منها اثني عشر بيتاً[65]، ولكنه لا يقف عند هذا الحدِّ، بل يستطرد في ذكر الأمثلة والشّواهد ويدفعه حسُّه الفنّيّ إلى إيراد ما استحسنه أو نال إعجابه من شعر شاعرٍ ما، فها هو يختم هذا الباب بقصيدة ميمية لعمر بن الفارض، إذ يقول:" ولله درّ الإمام الأوحد المُتصوّف أبي حفص عمر بن الفارض، لقد أبدع في الغلوّ والحُسْنِ في قصيدته الخماريَّة، وهي من فرائد شعره في معناها، وها أنا أذكرُ منها ما حضر الآن على فكري مُنبّهاً للطَّالب، ومُنشّطاً للرَّاغب، رجاء النَّفع بذلك، إن شاء الله تعالى، وهي: (من الطّويل)

شَرِبْنا، على ذِكرِ الحبيبِ، مُدامَةً سَكْرِنا بها، مِنْ قبلِ أن يُخْلقَ الكَرْمُ

لها البَدرُ كأسٌ، وهيَ شَمْسٌ، يُديرُها هِلالٌ، وَكَمْ يبدو إذا مُزِجتْ نَجْمُ"[66]

ولهذا فإنَّ القارئ يجد نفسه أمام فيضٍ زاخرٍ من المختارات الشِّعريَّة التي انطلق ابنُ أبي القاسم في اختياره لها من ذوقه البلاغيّ الرّفيع، وهو ذوقٌ لم يقيّده بمقطوعات المشهورين من الشُّعراء وقصائدهم كامرئ القيس، وطرفة بن العبد، والنَّابغة الذّبيانيّ، وأبي تمّام، وبشَّار بن برد، والمتنبّي، .....وغيرهم، بل فتح له البابَ ليطلعنا على قصائدَ لشعراءٍ مغمورين لم ينالوا حظَّهم من الشُّهرة والاهتمام، وكأنّه أراد أن يقرّر قاعدةً جوهريَّة نبَّه إليها السَّابقون عليه، وهي أنَّ ميدان البلاغة هو الكلام الجميل الذي يجمع حُسْنَ اللفظ، وجودة المعنى، دون اعتبار لقائله وزمانه.

---

(60). المتنبّي، أحمد بن الحسين: شرح ديوان المتنبّي، وضعه: عبدالرّحمن البرقوقيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، (د. ط)، 1986م، 64/4.

(61). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 311/1

(62). القيس، امرؤ: الدّيوان، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط3، 1969م، ص68.

(63). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 451/1-453.

(64). الفرزدق، همَّام بن غالب: الدّيوان، شرحه وضبطه وقدَّم له: علي فاعور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1987م، ص512.

(65). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 453/1-454.

(66). المصدر نفسه، 456/1، وابن الفارض، عمر: الدّيوان، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، ص140.

والواضح أنَّ ابنَ أبي القاسم كان يُدرك وقوعه في مثل هذه الإطالة في ذكر الشَّواهد، بدليل قوله – أحياناً – بعد الانتهاء منها: "وقد أطلنا فلنرجع على بيت النَّاظم"[67]، وقوله:" وهذا القدر كافٍ....."[68]، ففي مثل هذه العبارات ما يشي بأنَّ هذه النَّوع من الإطالة لم يكن عفو الخاطر، بل كان مقصوداً، بغيةَ تقريب هذه الفنون البلاغيَّة إلى أذهان طلبة العلم خاصّة، والمُتلقِّين عامّة، فضلاً عن رغبته في وضع نماذج تطبيقيّة بين أيديهم يبحثون فيها عن جوانب الحُسْنِ والجمال، فهذه هي البلاغة بمفهومها الفنّيّ، وتلك هي أصولها الرَّئيسة التي تربط النَّظرية بالتَّطبيق، وبذلك يكون ابن أبي القاسم أوّل من مهَّد السّبيل أمام شرَّاح البديعيَّات ليسيروا على هذا النَّهج في التَّأليف، فهذا ابن حِجَّة الحمويّ (837هـ) يسلك في شرح بديعيّته المسلك نفسه الذي وضعه ابنُ أبي القاسم.

ثالثاً- نقد الشَّاهد الشِّعريّ:

لم يقتصر جهدُ ابن أبي القاسم على شرح الشَّاهد الشَّعريّ، ورفده بشواهدَ أخرى مماثلةٍ له، بل كان يقف عند بعض هذه الشّواهد وقفاتٍ نقديَّة عامَّة توضّح موقفه منها، فهو عندما يستحسن بيتاً من الشِّعر يعبّر عن هذا الاستحسان بعبارةٍ تعدُّ من النَّقد دون شكٍّ، ومثال ذلك ما نجده في باب "براعة الختم"، إذ يستشهد له ببيت المتنبي التَّالي: (من البسيط)

قَدْ شرَّفَ اللهُ أرضاً أنتَ ساكنُها وشرَّفَ النَّاسَ إذْ سوّاكَ إنسانا[69]

ثم يعلّق على هذا البيت بقوله:" فهذا مقطعٌ حَسَنٌ لم يبقَ للنَّفس تشرّفٌ لما وراءه"[70]، وقريبٌ منه ما ورد في باب الطباق، إذ يقول:" ومن أبدع الطباق وألطفه قول ابن رشيق القيروانيّ: (من الطّويل)

وَقَدْ أطفأوا شمسَ النَّهارِ وأوقدُوا نُجومَ العوالي في سماءِ عجاجِ "[71]

ومثل هذه الأحكام النَّقديَّة المُوجزة نجدها في غير موضعٍ من كتاب " أنوار التّحلّيّ"، وقد ترد أحياناً في معرض تعليل ابن أبي القاسم لاستشهاده بشعر المتأخِّرين، إذ يصف شعر إبراهيم بن سهل الإشبيليّ بالعذوبة، والسُّهولة ثُمَّ يستشهد ببيتين منه في باب التَّنسيق[72]، ويضيف "ومن المتأخِّرين الفاسيين أبو عبدالله محمد المكُّوديّ... وشعره كلُّه حلوٌ حَسَنٌ مسبوكٌ في الجدِّ والغزل، فمن شعره في الجدِّ....."[73]، ورغم أنَّ هذه الأحكام كانت أحكاماً نقديَّةً انطباعيَّةً غير مُعلَّلة، إلا أنَّنا نجد في مواطنَ قليلةٍ بعض الأحكام المُعلَّلة، ومثال ذلك أنَّه عندما استشهد - في باب الاستطراد - بقول بكر بن النَّطَّاح: (من الطَّويل)

فَتَىً شَقِيَتْ أموالُهُ بنوالِهِ كَمَا شَقِيَتْ بَكْرٌ بأرماحِ تَغْلِبِ

علَّق على هذا البيت مبيّناً وجه استحسانه له بقوله:" وهذا أبدع استطراد وقع لشاعرٍ بأخصر لفظ، وأحسنِ بيان، بين مدح الممدوح بالكرم، وقبيلته بالشّجاعة والظّفر، وبين الهجو لأعدائهم بالضَّعف والخور"[74]، فهذه الملاحظات النَّقديَّة، وإن لم يلتزم بها في شواهده الشِّعريَّة كلِّها، تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ منهج ابن أبي القاسم في

(67). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبدالله (ت787هـ): أنوار التّحلّي...، 244/1.

(68). المصدر نفسه، 314/1.

(69). المتنبّي، أحمد بن الحسين: شرح ديوان المتنبّي، 361/4.

(70). انظر، ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبدالله (ت787هـ): أنوار التّحلّي.....، /477.

(71). المصدر نفسه، 95/1.

(72). انظر، المصدر نفسه، 178/2.

(73). المصدر نفسه، 178/2.

(74). المصدر نفسه، 105/1

انتقاء شواهده البلاغيَّة وعرضها لا يخلو من حسٍّ نقديّ، فالشَّواهدُ كثيرةٌ وابن أبي القاسم " أمامها صيّاد بارع تمرُّ الشَّواهد أمامه، أو يستعرضها، ثمَّ يقتنص منها ما يروق له، ويجد فيه بغيته ممّا يناسب حديثه، ..... ثمَّ لا يكتفي بعرض صيده هذا، بل يقرنه بعباراتٍ تدلُّ على قيمة هذا الشَّاهد"[75]، فهو يمهّد – في بعض المواضع - لشواهده أو يعقّب عليها بعباراتٍ يظهر منها تأكيده دور الذّوق في تقدير النَّصِّ الأدبيّ والحكم عليه.

ولم تقتصر الملاحظات النَّقديَّة عند ابن أبي القاسم على الإشارة إلى ما يستحسنه من شواهد شعريَّةٍ، بل نجده يوازن – أحياناً - بين ما يورده من شواهد، ويحكم بالأفضليَّة لشاهدٍ على آخر، ومثال ذلك موازنته – في باب التَّذييل - بين بيت أبي الطَّيب المتنبي: (من البسيط)

تُمْسي الأمانيُّ صَرْعى دونَ مَبلَغِهِ فَمَا يقولُ لشيءٍ لَيْتَ ذلكَ لي[76]

وبيت ابن نباتة المصريّ: (من البسيط)

لم يُبْقِ جُودُكَ لي شيئاً أُؤمّلُهُ تركتني أَصْحَبُ الدُّنيا بلا أَمَلِ[77]

فيعلّق على هذين البيتين بقوله:" وهذا البيت أبلغُ من بيت أبي الطّيب، لكونه تضمّن المدح، والأدب مع الممدوح، حيث لم يجعله في حيّز من يتمنّى شيئاً، بخلاف بيت أبي الطّيب، فتأمّله"[78]، فابن أبي القاسم يعلّل سبب تفوّق ابن نباتة على المتنبي تعليلاً يحتكم فيه إلى المعنى، فكلُّ ما جعله المتنبي لممدوحه من قدرةٍ على الأماني كلِّها، جعله ابن نباتة للمادح بفضل الممدوح، ومثل هذه الوقفات النّقديَّة الفاحصة نجدها في باب "براعة الاستهلال"، إذ يسير ابن أبي القاسم على نهج البلاغيين القدماء في ضرورة أن يتجنّب الشَّاعر في شعره ما يتطيّر به الممدوح والسَّامع، ويستشهد بأبياتٍ للمتنبي، وأبي نواس موازناً بينهما ومفضّلاً الأخير لتفوّق معناه على الأوّل[79]، فمثل هذه الإشارات النَّقديَّة تكشف لنا عن دقّته في التَّعقيب على شواهده الشِّعريَّة، والموازنة بينها بأسلوبٍ جميلٍ يثير انتباه المتلقي، ويحثّه على النّظر في تلك الموازنات، ويحفزه على مزيد من التفكّر والتأمّل، وليس أدلُّ على ذلك من قوله مخاطباً المتلقي في معرض تعليقه على بيتي المتنبي وابن نباتة السَّابقين:" فتأمّله"، أفلا تمثل دعوته هذه تدريباً عمليَّاً على النَّقد التَّطبيقيّ الذي أغفلته معظم المُصنّفات البلاغيَّة؟

الخاتمة:

بعد الانتهاء من هذه الدِّراسة نخلص إلى القول إنَّ كتاب (أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّيّ) لأبي عبد الله بن أبي القاسم (787هـ)، يعدُّ من أشهر المؤلَّفات البلاغيَّة التي اتخذت منهجاً مُتميّزاً مزج بين طريقة المدرسة الأدبيَّة التي تُعنى بالجانب التَّطبيقيّ والجماليّ، والإكثار من الشّواهد البلاغيَّة المُختلفة، وطريقة المدرسة الكلاميَّة التي تهتمُّ بالجانب التَّنظيريّ، ووضع القواعد، والتَّعريفات الدَّقيقة لكلِّ فنٍّ بلاغيّ، وبذلك ظهر تجديده عندما جمع بين هذين الاتجاهين المُختلفين.

وتبيَّن لنا أنَّ ما يميّز هذه المُصنَّف البلاغيّ هو شغف مؤلِّفه في تقصّي الأمثلة، والشّواهد لكلِّ فنٍّ بلاغيٍّ من القرآن الكريم، والحديث النَّبويّ الشَّريف، والشِّعر العربيّ، وفنون النَّثر المختلفة، وقد بدا ذوقه الفنيّ واضحاً فيما يختار من أمثلةٍ وشواهد، إذ أدرك أهمية الشِّعر وأثره البالغ في نفس المتلقّي، ولذلك عني عنايةً كبيرةً بالشّواهد

(75). أبو زيد، علي: البديعيات في الأدب العربيّ، ص233.

(76). المتنبيّ، أحمد بن الحسين: شرح ديوان المتنبيّ، 206/3.

(77). السّعدي، ابن نُباتة (405هـ): الدّيوان، دراسة وتحقيق: عبد الأمير الطّائي، (د. ط)، (د.ت)، 208/1.

(78). ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): أنوار التّحلّي....، 129/1.

(79). انظر، المصدر نفسه، 37/1-38.

الشِّعريَّة التي حظيت بنصيبٍ وافرٍ من مجموع شواهده، وهو في إيراد هذه الشّواهد لم يكن تقليداً مطلقاً يّردد ما ذكره المتقدِّمون عليه، بل نلاحظ حرصه الواضح على الخروج من دائرة الأمثلة والشّواهد التي تضمّنتها المُدوّنة البلاغيَّة قبله، وليس أدلُّ على ذلك من استشهاده بأمثلة من شعر معاصريه، فضلاً عن استشهاده بأمثلةٍ من نظمه.

وأظهرت الدِّراسة أنَّ ابنَ أبي القاسم لم يكن يورد أمثلته وشواهده الشِّعريَّة بطريقةٍ مضطربةٍ، بل لمسنا ملامحَ منهجٍ واضحٍ التزمه في كثيرٍ من أبواب كتابه، فهو يورد الشَّاهد الشعْري منطلقاً من قاعدةٍ تقوم على توسيع دائرة الاستشهاد البلاغيّ، دون أن يفرّق بين عصرٍ وآخر، أو بين قديمٍ ومُحدثٍ، ثُمَّ يتناول ما يورده من شواهدَ بالشَّرح والتَّحليل البلاغيّ واللغويّ، وقد تميَّز بأنَّه لا يكتفي بالشَّاهد أو الشَّاهدين لتوضيح الفنون البلاغيَّة، بل يُكثر من أمثلته وشواهده؛ ليدعمَ الشَّاهد الأوّل ويعزّزه بشواهدَ أخرى مماثلةٍ له، ويقفُ - عند بعضها - وقفاتٍ نقديَّة عامّة تُظهر ذوقَه الفنّيّ الذي دفعه – أحياناً - إلى إيراد مقطوعاتٍ أو قصائد كاملةٍ لما فيها من حُسْنٍ وجمالٍ، وهو في ذلك كلِّه يبتعدُ عن الاستشهاد بالشِّعر الفاحش والألفاظ المُبتذَلة، ويلوّن كتابَه من حينٍ إلى آخر بقصصٍ ونوادرَ تُبعد الملل عن المتلقِّي.

وصفوة القول إنَّ هذا الكتاب يعدُّ مصدراً من مصادر البحث البلاغيّ، بل إنّه يعدُّ موسوعةً بلاغيَّةً لما تضمنه من بحثٍ مستفيضٍ، ودراسةٍ خصبةٍ أثرت مباحث البلاغة العربيَّة؛ ولهذا يوصي الباحث الدَّارسين بالرجوع إليه، والبحث في مسائله وقضاياه البلاغيَّة، واللغويَّة، والأدبيَّة.

المصادر والمراجع

1- ابن أبي القاسم، أبو محمَّد عبد الله (ت787هـ): **أنوار التّحلّي على ما تضمَّنته قصيدة الحلّي**، أعدَّه للنّشر، وعلَّق عليه: مصطفى مرزوقي، المجلس الأعلى للغة العربيَّة، الجزائر، ط1، 2006م.

2- ابن الأثير، ضياء الدين(637هـ): **المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر**، قدَّمه وعلَّق عليه: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).

3- ابن الفارض، عمر: **الدّيوان**، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د. ت).

4- ابن عبدربه، أحمد بن محمد: **العقد الفريد**، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1، 1989م.

5- ابن قتيبة، أبو عبد الله محمَّد بن مُسلم (276هـ): **الشِّعر والشّعراء**، تحقيق: أحمد محمَّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).

6- ابن مالك، بدر الدِّين (686هـ): **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، حقَّقه وشرحه ووضع فهارسه: حسني يوسف، مكتبة الآداب، الجماميز، (د. ط)، (د. ت).

7- أبو القاسم، سعد الله: **تاريخ الجزائر الثّقافيّ**، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1998م.

8- أبو تمَّام، حبيب بن أوس: **ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التَّبريزيّ**، تحقيق: محمَّد عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط4، (د. ت).

9- أبو زيد، علي: **البديعيَّات في الأدب العربيّ (نشأتها، تطوّرها، أثرها)**، عالم الكتب، دمشق، ط1، 1983م.

10- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين أبي تمَّام والبحتري**، تحقيق: السّيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1972م.

11- بنعبد الله عبد العزيز: **الموسوعة المغربية للأعلام البشريَّة والحضاريَّة**، مطبوعات وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميَّة، المغرب، (د. ط)، 1975م.

12- الحمصيّ، ديك الجنّ: **الديوان**، حقَّقه وأعدَّ تكملته: أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، دار الثَّقافة، بيروت، (د. ط)، (د. ت).

13- الخرشة، أحمد: **منهج التّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ عند ابن حِجّة الحمويّ في كتابه "خزانة الأدب وغاية الأرب"**، مجلة الزّرقاء للبحوث والدِّراسات الإنسانيَّة، مج 15، ع2، 2015م.

14- السّعدي، ابن نُباتة (405هـ): **الدّيوان**، دراسة وتحقيق: عبد الأمير الطّائي، (د. ط)، (د.ت).

15- السّموأل: **الدِّيوان**، صنعة أبي عبد الله نفطويه، تحقيق وشرح: واضح الصَّمد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1996م.

16- السّيوطيّ، جلال الدِّين عبد الرّحمن بن أبي بكر (911هـ): **شرح عقود الجُمان في المعاني والبيان**، تحقيق: إبراهيم الحمدانيّ، وأمين الحبَّار، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2011م.

17- طبانة، بدوي: **البيان العربيّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيَّة عند العرب**، دار المنارة، جَدَّة، ط7، 1988م.

18- عَزَّة، كُثيّر: **الدّيوان**، جمعه وشرحه: إحسان عبَّاس، نشر وتوزيع دار الثَّقافة، بيروت، (د. ط)، 1971م.

19- العطويّ، عويض بن حمود: **منهج التَّعامل مع الشَّاهد البلاغيّ بين عبد القاهر وكلٍّ من السَّكاكيّ والخطيب القزوينيّ**، مجلة جامعة أمِّ القرى لعلوم الشَّريعة واللغة العربيَّة وآدابها، ج18، ع30، 1425هـ.

20- فاعور، منيرة: **الحاكم البلاغيّ "يحيى بن حمزة العلويّ 749هـ، دراسة في التّفكير البلاغيّ"**، منشورات اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2010م.

21- الفرزدق، همَّام بن غالب: **الدّيوان**، شرحه وضبطه وقدَّم له: علي فاعور، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1987م.

22- القزوينيّ، الخطيب(739هـ): **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق وتنقيح: محمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م.

23- القيس، امرؤ: **الدّيوان**، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط3، 1969م.

24- مبارك، زكي: **المدائح النبويَّة في الأدب العربيّ**، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده، مصر، (د. ط)، 1935م.

25- المتنبيّ، أحمد بن الحسين: **شرح ديوان المتنبيّ**، وضعه: عبدالرّحمن البرقوقيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، (د. ط)، 1986م.

26- المراغي، أحمد مصطفى: **تأريخ علوم البلاغة العربيَّة والتَّعريف برجالها**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1950م.

27- المرزوقيّ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن: **شرح ديوان الحماسة**، نشره: أحمد أمين، وعبدالسَّلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د. ط)، 1991م.

28- مطلوب، أحمد: **دراسات بلاغيَّة ونقديَّة**، دار الرّشيد للنشر، (د. ط)، 1978م.

29- مفتاح، محمَّد: **التّلقي والتَّأويل (مقاربة نسقيَّة)**، المركز الثَّقافيّ العربيّ، بيروت، ط1، 1994م.

30- المَقّريّ، أحمد بن محمَّد (1041هـ): **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرَّطيب**، حقَّقه: إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، (د. ط)، 1968م.

31- المنونيّ، محمد: **المصادر العربيَّة لتاريخ المغرب من الفتح الإسلاميّ إلى نهاية العصر الحديث**، المملكة المغربيَّة، جامعة محمّد الخامس، (د. ط)، 1983م.